

الترانيم الأولى

مع بداية الصورة الفطرية الأولى للحياة الاجتماعية البشرية، وتميز الوحدة الأسرية الأولى (أب - أم - طفل) كان عبء رعاية الصغير من نصيب «المرأة» الأم .. التي حملته في أحشائها قبل مجيئه إلى الوجود، وشعرت به وهو يضطرم حياة، ويفرض وجوده قبل أن يرى نور هذه الدنيا، ومن ثم، وبعد أن رآته بشرا سويا، في أمس الحاجة إلى الكفالة والرعاية، وقد أنطلق الأب إلى الغابات أو البحار، يتصيد قوته وقوت أسرته، كانت البداية أنشودة ساذجة فطرية بسيطة المعاني بسيطة الإيقاع تعتمد على الأصوات المتكررة، والصفير اللافت لنظر الطفل، محاولة للاستيلاء على مشاعره وإيقاظ حواسه، وإلهائه عن البكاء الذي لا تدرى له سببا، وربما الجوع الذي لا تملك له دفعا حتى يعود الأب محملا بأثمار الغابة، وحصاد يوم مرهق من الصيد، والعُدُو وراء الفناصص الشاردة..

وسوف نُعنى أنفسنا كثيرا إذا حاولنا تمثل هذه الأناشيد التي تحمل سحر الفطرة، ورائحة الغابات والأشجار، ودفء العواطف الآسرة ..

ولكننا قد نقع قريبا من هذه الأناشيد لو استطعنا أن نحفر في التراث الشعبي في عديد من البيئات الإنسانية، وأن نقف عند بعض الصيغ الشعرية في أهازيج الأمومة، وترانيم الأطفال ..

ولعل ما في ذاكرتنا من ألعاب الطفولة المصرية التي تصاحب فيها الحركة الإيقاع الصوتي ما يمثل المرحلة التالية لترانيم المهد في ذلك الزمن السحيق، فهناهم الأطفال قد شبوا عن الطوق وقد خرجوا من دائرة البيت، وانفلتوا من قبضة الأمومة، ليلتقوا في باحة الطرقات، وليصنعوا عالمهم المليء بالنغمة والحركة، بالصورة والإيقاع، معبرين عن مراحل مختلفة من التطور اللغوي والاجتماعي فلا شك أن:

بريلا بريلا بريلا

تنتمي إلى طور اجتماعي يختلف عن ذلك الطور الذي تنتمي إليه أنشودة:

هينا مقص وهينا مقص